الحبيبة

جلست أولنكا على درجات الباب الخلفي لمنزلها بينما وقف "كوكين" مدير مسرح تيفولي"، وهو يسكن في الجناح الآخر من المنزل، ينظر إلى السماء وقـد تجمـع فيها غيوم داكنة تنذر بالمطر وغمغم بيأس:

مطر! ياللحظ العاثر! إنه يود إغاظتي بل تحطيمي.. ما هذه الحياة يا أولغا؟ إنهـا خليقة أن تجعل الإنسان يتمنى البكاء ليفرج عن نفسه. إنه يقتل نفسه بالعمل ويقدم للنظارة أحسن الممثلين وأفضل المسرحيات، ولكن من يقدر عمله؟ فـالجمهور لا يعجبه سوى كل سخيف تافه.. وهذا الطقس!. انظري، لم يكف المطـر حـوالي الشهرين الماضين.. لن يأتي أحد من المتفرجين وعلي أن أدفع أجـرة المـسرح والممثلين.. وفي اليوم الثاني والثالث تجمعت الغيوم مرة أخرى فأرسـل كـوكين ضحكة هستيرية:

- آه لست أبالي دعها تزداد سوءاً، ولتغرق المسرح وما فيه، وليقم الممثلون علي دعوى وليجروني إلى المحكمة فلست أبالي..

أصغت أولغا إليه باهتمام وصمت.. وانهالت الدموع من عينيها، وأثر في نفـسها حظ كوكين العاثر وأيقظ في نفسها شعوراً عميقاً بالحب والإخلاص رغمـاً عـن قامته القصيرة ووجهه الأصفر واليأس المرتسم على سحنته دائماً..

لم يكن قلب أولغا ليخلو من الحب.. فلقد أحبت أباها المريض الجالس على كرسيه المريح يتنفس بصعوبة. وأحبت عمتها التي زارتهم مرة أو مـرتين، وأحبـت إذ كانت فتاة صغيرة معلم الفرنسية.

لقد كان الحب يملأ كيان أولغا، الهادئة العاطفية الطيبة القلب. ونظرة إلى وجنتيها الموردتين ونحرها الأبيض بشامته السوداء وتلك الابتسامة العزيزة تلعـب علـى شفتيها تجعلك تبتسم وتقول "لا بأس بها".

كان منزلها في ضاحية المدينة غير بعيد عن مسرح "تيفولي" فكان بوسعها سماع الموسيقى صباح مساء، وصوت كوكين يصارع الحظ السيء ويشكو من الجمهور

فيذوب قلبها بنعومة.. وعندما يغادر كوكين عند الصباح تفتح نافذتها ويطل من خلال الستائر وجهها وكتفاها ويرى كوكين الابتسامة العطوفة التي تمنحه إياها.
لم تعارض إذ سألها الزواج، وعندما كان ينظر إلى رقبتها الجميلة وكتفاها المستديرين يهتف مسروراً "أيتها الحبيبة!"
لقد كان سعيداً، ولكنها أمطرت يوم عرسه، وتعابير اليأس لم تفارق سحنته.
ومرت الأيام على ما يرام.. كانت تجلس وراء الصندوق وترتب المسرح وتسجل النفقات وتنفذ الأجور. وفي المقهى تجلس لتحدث صديقاتها عن المسرح، وبأنه المكان الوحيد الذي يجلب السرور الحقيقي للنفس ويجعل الإنسان راقياً ومثقفاً وتردف متسائلة:

- ولكن أتظن الجمهور يقدر ما نقدم له؟ فالبارحة مثلاً أنا "وفانشكا" زوجي قدمنا رواية "فاوست" وكانت المقاعد خالية تقريباً ولكنني واثقة لو أن المسرحية كانت سخيفة لتقاطر الناس وما وجدنا مقعداً خالياً.

كانت تردد كل كلمة يتفوه بها كوكين عن المسرح والممثلين وتجأر بالشكوى من الجمهور كما يفعل، وعندما يظهر نقد لاذع في إحدى المجلات عن المسرح تبكي ثم لا تتورع أن تذهب مباشرة للناشر تتحداه وتجادله..
وكان الممثلون مغرمين بها ويدعونها على سبيل التفكه "فانشكا وأنا" أو "الحبيبة" فاستاءت لذلك ونقدتهم أجراً منخفضاً، فلما انفضوا من حولها لم تكترث لذلك وما ذرفت سوى بضع دمعات على الأكثر.
وفي الشتاء استأجرا مسرحاً في المدينة وقامت بالأدوار فرقة صغيرة من الممثلين.
كانت أولغا تزداد امتلاء وتشع سروراً وكوكين يزداد نحولاً وشكوى من خساراته المتوالية مع أن ما ربحه في ذلك الشتاء كان لابأس به. وفي الليل كان يسعل فتعطيه شراب الراسبوري، وماء الجير وتفركه بماء الكولونيا وتلفه بأغطية لينة.
وأخيراً صمم كوكين الذهاب إلى موسكو، وبقيت أولغا وحيدة تحملق في النجوم ولا يستقر لها قرار. ووعدها كوكين بأنه سيعود في عيد الفصح، ولكن قبل العيد بأيام قليلة وفي ساعة متأخرة من الليل طرق الباب طرقاً عنيفاً وناولها موزع

البريد برقية فشعرت بجسدها ينتفض خوفاً وفتحتها بيدين مرتعشتين.. كان مرسلها مدير فرقة الأوبرا وجاء فيها "إيفان بتروفيتش توفي اليوم فجأة.. ننتظـر أوامـر سريعة.. الجنازة يوم الثلاثاء؟

وانفجرت أولغا باكية" يا حبيبي، يا زوجي العزيز، يا حياتي.. لم قابلتك وأحببتك؟ لم هجرت أولغا المسكينة، حبيبتك أولغا المسكينة؟

ودفن كوكين في موسكو وعادت أولغا لتدفن نفسها بين البكاء والنحيب.

وسمع نحيبها الجيران فقالوا:

مسكينة الحبيبة، مسكينة أولغا إنها حزينة أشد الحزن..

وبعد ثلاثة شهور شوهدت أولغا عائدة من القداس وبرفقتها "فاسيلي بـستافالوف" تاجر من تجار الخشب وتكلم معها بعطف "كل شيء يسير في الحياة حسب ما قدر له يا "أولغا سيمانوفنا" فإذا توفي عزيز لدينا فمعنى هذا أنها إرادة الله وعلينـا أن نحتملها بتسليم.

وأوصلها إلى منزلها وعاد أدراجه. وفي تلك الليلة كان صوته الحنون يتردد فـي أذنيها. وكان من الواضح إنه أحبها هو الآخر، فما مضت مدة حتى زارتها امرأة عجوز وتحدثت عن "بستافالوف" وطيبته واتزانه، ثم زارها هو أيضاً بعد ثلاثـة أيام. ومع أنه لم يمكث سوى عشر دقائق إلا أنها أحبته بجنون، وكانـت الحمـى تشتعل في جسدها طوال الليل.

وتزوجت أولغا بستافالوف وعاشا سعيدين، وكانت أولغا تساعده ببيع الخشب بعـد أن تنهي عملها المنزلي وأصبحت وكأنها تتعامل بالخشب طوال حياتها. وحتى في الليل تحلم بأن جبالاً تغطيها الأخشاب قدمت لمحاربة أخشابهم، وأن معركة نشبت على قدم وساق، وأن الأخشاب تسقط ثم تقف ثم تتكوم بعضها فوق بعض وتصيح أولغا في نومها، ويربت عليها بستافالوف بلطف "أولغا" ما بك يا عزيزتي؟"

لقد أصبحت آراء زوجها آراءها هي، فإذا ظن الغرفة حارة ظنتهـا كـذلك، وإذا اعتقد بأن العمل فاتر اعتقدت بأن العمل فاتر، ولم يكـن " بـستافالوف" مغرمـاً بالفرفشة، وكان يفضل أن يبقى أيام العطل في المنزل ففعلت نفس الشيء. وعندما

تسألها صديقاتها عن سبب ذلك تجيب: فاشنكا وأنا لا نحب المسرح. فادينا عملنـا وليس عندنا وقت نضيعه بالسفاسف، فماذا بالله يستفيد الإنسان من المسرح؟.

ولم يكونا يذهبان إلاّ إلى القداس أيام الآحاد، ويعودان جنباً إلى جنب تفوح منهمـا رائحة زكية. كانا راضيين، وكانت أولغا تقول لصديقاتها:

- نشكر الله على سعادتنا، ونتمنى لكل زوجين حياة هانئة.

وذهب بوستالوف يوماً ليشتري أخشاباً من المدينة ولكنه لم يعد، وبقيـت أولغـا فريسة الهم والخوف. ولم يكن يخفف عنها قليلاً سوى زيارة جارها البيطري وهو شاب في مقتبل العمر كانت له زوجة هجرها لخيانتها، وله منهـا طفـل صـغير يرسل إليه روبلا في الشهر، فيلعبان الورق سوياً، يحدثها بوقائع النهـار؛ ولكـن حديثه عن نفسه كان إلى نفسها ألذ وأشهى، فتتنهد أولغا وهي تصغي إليه وتحزن لأجله وتتكلم بحنو شديد مقلدة زوجها: - تصالح مع زوجتك يا فلاديمير. سامحها لأجل ولدك. وعندما عاد زوجها أخبرته عن الطبيب البيطري وطفله المـسكين. وفجأة، وبتقارب غريب في الأفكار وقف الاثنان مبتهلين أمام صور القديـسين أن ينجب لهما أطفالاً.

وعاشا ست سنوات بهدوء ووئام. ولكن حدث يوماً أن شرب الزوج شراباً ساخناً وذهب إلى عمله فأصابه برد ومرض، وما نفعت محاولات أمهر الأطباء فتفـاقم المرض ومات بعد أربعة أشهر. وأصبحت أولغا أرملة للمرة الثانية.

وغمرت نفسها بالسواد، ولم تترك منزلها إلا إلى الكنيسة أو قبر زوجها.

وبعد ستة أشهر أصبحت تذهب إلى السوق. وكانت ترى في بعض الأحيان مـع الشاب البيطري تشرب الشاي وتستمع إلى الأخبار يقرأها عليها بصوت عال.

وتعرفت مرة في إدارة البريد على امرأة تحدثت في سياق كلامها عـن المراقبـة السيئة على الحيوانات ما يسبب انتشار الأمراض وانتقال العدوى منها إلى الناس.

ووجدت أولغا نفسها تعيد كلمات الطبيب البيطري بهذا الخصوص وتتمسك بنفس الآراء التي يتمسك بها.

كان من الواضح أن أولغا لا تستطيع الحياة بغير علاقـة مـع النـاس يهبونهـا أفكارهم، فاستطابت الإقامة في المنزل. ولعل هذا العمل كان خليقاً أن يلصق بهـا سوء السمعة، ولكن ما من أحد يظن سوءاً بأولغا.

كان الاثنان يحاولان كتم ما بنفسيهما من تحول في علاقتهما، ولكن بدون نجـاح. فما كانت أولغا لتخفي سراً. ففي أحد الأيام زار البيطري أصدقائه من الأطباء، فما غفلت أولغا وهي تصب الشاي وتعد المائدة عن ترديد ما تعرف وما لا تعرف من أمراض الحيوانات، فاستاء لذلك البيطري وأنبها قائلاً:

- لم تحشرين نفسك فيما لا تعرفين عندما نتباحث نحن الأطباء في أمر ما؟ فهذا منك سخيف.. ونظرت إليه بدهشة وانزعاج وسألته: -ولكن "فولوديتشكا" فـيم أتكلم إذن؟

ورمت بذراعيها حول عنقه وفي عينيها الدموع فسري عنه وارتاح إليها وسـعد الاثنان.

ولم تدم السعادة، سافر البيطري وترك أولغا وحيدة، ومرت الأيام تافهـة الطعـم فارغة موحشة، وكانت تحملق في الساحة خالية الفكر، ولم يعد هنـاك مـن رأي تتمسك به، ولم تعد تفهم للأشياء معنى ولا مغزى إذ لم يعد هناك من أمر تستطيع التحدث فيه. ففي أيام كوكين و بستافالوف وأخيرا في أيام الطبيب البيطري كـان لأولغا تفسير وفكرة عن كل شيء. أما اليوم فما أشبه فراغ عقلها وقلبهـا بفـراغ ساحة منزلها.

وتحول كل شيء بمر الزمن، وأصبحت الشيخوخة. تطرق بابها. وعندما تستنشق نسيم الربيع تحيا في نفسها الذكريات، ولكن سريعاً ما تذبل وتموت وعندما تتحبب إليها قطتها السوداء لا تتحرك عاطفتها. فما توده حب يحول كيانها وروحها بعمق ويدفئ دمها ويهبها الأفكار والآراء.

وفي أحد الأيام برق الأمل في سماء أولغا المظلمة فأسرعت إلى الباب لترى مـن الطارق فإذا بصديقها القديم الطبيب البيطري، فانفجرت بالبكاء وارتمـت علـى صدره دون أن تتفوه بكلمة واحدة وقادته إلى الداخل وهي تقول بصوت يرتجـف بالسعادة: يا حبيبي فلاديمير من أين أرسلك الله لي؟

وأخبرها أنه اعتزل وظيفته واعتزم السكن في بلده فعليه أن يرسل ولده إلى المدرسة، وأخبرها بأنه تصالح وزوجته وهي وولده في الفندق ريثما يفتش لهما عن مسكن.

وصاحت أولغا بحماس ظاهر:

- حفظك الله يا فلاديمر فلتأخذ منزلي إذ يكفيني جناح، ولست أطلب منك أجرا.. يا إلهي أية سعادة ستكون بقربك! وفي اليوم التالي أعدت الترتيبات، وحضر فلاديمير وزوجته وولده. كانت الزوجة طويلة نحيلة حادة القسمات، أما الطفل ساشا فقد كان في العاشرة من عمره بعينين زرقاوين صافيتين وغمازتين على وجنتيه، ومنذ دخل المنزل صادق الهرة السوداء.

وعند المساء عندما جلس الصبي يذاكر دروسه نظرت إليه بعطف وتمتت:

- يا حبيبي كم أنت مجتهد وجميل.

وعندما ردد عن ظهر قلب" الجزيرة قطعة من الأرض يحيطها البحر من كل جانب" رددتها معه. لقد كانت أول فكرة طرقت دماغها بعد صمته الطويل. وأصبحت تتباحث وأبوي ساشا عن صعوبة الدروس في المدرسة ولكنها تردف بأن الثقافة المدرسية خيراً كثيراً من التجارة. فعندما يتم الإنسان دروسه فبوسعه أن يصبح طبيباً أو مهندساً.

وتذهب الأم لزيارة أختها، ويتغيب الأب في عمله أياماً متتالية، فتأخذ أولغا الصبي إلى جناحها وتعطيه غرفة خصوصية. وفي كل صباح توقظه قائلة:

- أفق يا حبيبي ساشا. حان الوقت لتذهب إلى المدرسة. فيستيقظ الصبي وقد أثقل النعاس جفنيه فتقول:

- مسكين.. إنك تعاني كثيراً في الدراسة.. إنك لم تحفظ القصة الخرافية كما ينبغي يا ساشا.

ويقول ساشا"

- آه، دعيني وحدي من فضلك"

وعندما يترك المنزل ذاهباً إلى المدرسة تلحقه أولغا وتصيح بضجة:

- ساشنكا" وترمي إليه بالبلح أو الكارميلا، ويستاء الصبي ويخجل من تلك المرأة التي تلاحقه ويقول: أليس من الأفضل أن تعودي يا عمتي أسـتطيع الـذهاب وحدي، وتقف المرأة ونظرها معلق به حتى يغيب عن ناظريها. كم كانت تحبّه وعندما تعود إلى المنزل والرضى يغمر نفسها ويقابلها أحد الناس ويسألها عن صحتها تجيب: بخير.. إن الفصل الدراسي صعب جداً هذه السنة فتصوروا أنه في الصف الأول وكان عليه أن يحفظ قصة خرافية عن ظهر قلب وترجمـة باللاتينية وحل مسألة رياضية. فكيف يستطيع طفل صغير القيام بكل هذا؟
- وكانت تعيد كل كلمة قالها ساشا عن الدروس والمعلمين، وفي المساء تتـذاكر وساشا وتبكي مثله إن واجهت مسائل صعبة، وعندما ينام ترسم عليه علامـة الصليب وتتمتم بالدعاء، وعندما تذهب إلى فراشها تفكر بالمستقبل البعيد عندما يصبح ساشا طبيباً أو مهندساً ولديه منزل كبير وعربـة، ويتـزوج وينجـب الأطفال. وتنام وهي تفكر بنفس الأشياء، وتنساب الدموع من خـلال أجفانهـا المغلقة.
- وفجأة يقرع الباب بشدة وتستيقظ أولغا لاهثة الأنفاس خوفاً من أن تكون هناك برقية من أم ساشا تطلب فيها الصبي.. آه، أيها الإله العظيمّ ويستولي عليهـا اليأس وتتجلد يداها وقدماها وتشعر بأنها أتعس مخلوق علـى ظهـر الأرض وتمر دقيقة أخرى وتسمع أصوات.. إنه الطبيب البيطري قد عاد من النادي.. وتتنفس الصعداء، ويسرّى عنها وتعود إلى فراشها راضية مطمئنة تفكر فـي حبيبها ساشا وتصغي إليه يتمتم في أحلامه بكلمات مبهمة..